

تَخَافُوا وَلَا تَحْزَنُوا وَأَبْشِرُوا بِالْجَنَّةِ الَّتِي كُنتُمْ تُوعَدُونَ ﴿٣١﴾ نَحْنُ أَوْلِيَائُكُمْ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَفِي الْآخِرَةِ وَلَكُمْ فِيهَا مَا تَشْتَهَى أَنْفُسُكُمْ وَلَكُمْ فِيهَا مَا تَدْعُونَ ﴿٣٢﴾ (١).

﴿وَأَصْطَفَيْتُكَ﴾ الأولى دون متعلق، قد تعني غير الثانية فإنها ﴿عَلَى نِسَاءِ الْعَالَمِينَ﴾ دونها، إذ لا تصح «وطهرتك على نساء العالمين» حتى تقبل العطف.

وهذه العناية المختلفة هي طبيعة الحال في تكرار، ولا سيما بوسيط غير المكرر ﴿وَطَهَّرَكِ﴾ فلتكن الأولى اصطفاً غير التطهير المتوسط وغير الاصطفاء الثاني، فقد تعني اصطفاً لها على ذكر تطلبته أمها محرراً، كما اصطفاها على كل ذكر لا ينجب ولداً دون أنثى وهي أنجبت دون ذكر، كما واصطفاهما من ذرية الأنبياء المصطفين المرسلين (٢) وإلى سائر الميزات الأنثوية، ولكنها على قمتها بحاجة إلى طهارة قمة تذود عنها مستلزمات تحررها لخدمة البيت خلطاً بالرجال على أية حال، فلذلك:

﴿وَطَهَّرَكِ﴾ طهارة مُطلقة تُناسب الاصطفاء سبباً ونتيجة و«طهرها من أن يكون في ولادتها من آبائها وأمهاتها سفاحاً» (٢).

ومن أن تأتي سفاحاً... ومن ثم الاصطفاء الثاني: ﴿وَأَصْطَفَيْتُكَ عَلَى نِسَاءِ الْعَالَمِينَ﴾ اصطفاً يُحلّق على كل صفة سامية، ومن ذلك اختصاصها في خطاب ربها ﴿يَمْرِيءُ أَفْتَى...﴾ (٢).

(١) سورة فصلت، الآيتان: ٣٠، ٣١.

(٢) نور الثقلين ١: ٣٣٦ عن تفسير العياشي عن الحكم بن عتيبة قال سألت أبا جعفر عليه السلام عن قول الله في الكتاب: ﴿إِذْ قَالَتِ الْمَلَكَةُ يَمْرِيءُ...﴾ [آل عمران: ٤٥] اصطفاً مرتين وإلا الاصطفاء إنما هو مرة واحدة؟ قال: فقال لي: يا حكم إن لهذا تأويلاً وتفسيراً فقلت له: ففسره لنا أبقاك الله فقال: يعني اصطفاها إياها أولاً من ذرية الأنبياء وطهرها من أن يكون في ولادتها من آبائها وأمهاتها سفاحاً واصطفاهما بهذا القرآن: ﴿يَمْرِيءُ أَفْتَى...﴾ [آل عمران: ٤٣].

أترى أن سعة ﴿نِسَاءِ الْعَالَمِينَ﴾ هي عرض المكان وطول الزمان؟ فهي - إذاً - مفضلة على الصديقة الطاهرة - وهي خير نساء العالمين من الأولين والآخرين -!

رجالاً ونساءً كما شرحنا عند تفسيرها في آية التطهير بقول فصل، فهي خير العالمين - كأبيها وبعلها وبنيتها المعصومين - رجالاً ونساءً، فهي مفضلة على نوح وإبراهيم وموسى وعيسى ﷺ فضلاً عن مريم سلام الله عليها.

وما يروى عن الرسول ﷺ إن «أفضل نساء العالمين خديجة وفاطمة ومريم وآسية امرأة فرعون»^(١) لا يعني مسامتهن مع بعض، وإنما فضلهن على النساء، على تفاضلهن فيما بينهن.

ذلك كما وهي سيدة نساء أهل الجنة لا مريم البتول^(٢) فهي - إذاً - «أفضلهن عالماً»^(٣) في الدنيا والآخرة.

ذلك - وليس ذكر مريم سلام الله عليها مرات في الذكر الحكيم وتطهيرها واصطفاءها إلا ذوداً عنها وابنها المسيح ﷺ ملابساتهما من

(١) الدر المنثور ٢: ٢٣ - أخرج الحاكم وصححه عن ابن عباس قال قال رسول الله ﷺ أفضل . . .

وفيه أخرج ابن مردويه عن أنس قال قال رسول الله ﷺ : إن الله اصطفى على نساء العالمين أربعاً آسية بنت مزاحم ومريم بنت عمران وخديجة بنت خويلد وفاطمة بنت محمد ﷺ ، وأخرج أحمد والترمذي وصححه وابن المنذر وابن حبان والحاكم عن أنس أن رسول الله ﷺ قال : حسبك من نساء العالمين . . .

(٢) المصدر أخرج ابن أبي شيبة وابن جرير عن فاطمة رضي الله عنها قالت قال لي رسول الله ﷺ : أنت سيدة نساء أهل الجنة لا مريم البتول.

(٣) المصدر أخرج ابن عساکر من طريق مقاتل عن الضحاک عن ابن عباس عن النبي ﷺ قال : أربع نسوة سادات عالمهن مريم بنت عمران وآسية بنت مزاحم وخديجة بنت خويلد وفاطمة بنت محمد ﷺ وأفضلهن عالماً فاطمة.

الشُّبُهَات التي لم يتورَّع اليهود والنصارى أن يلصقوها بهما، وإلا فلا دافع
لذكر النساء بأسمائهن في القرآن كما لم يذكرن فيه إلا هي .

أم أن القدر المعلوم من ﴿الْعَالَمِينَ﴾ عالمي زمانها الحاضر، أم والغابر
إلى حواء، وأما المستقبل فلا، فلأن الاصطفاء ماض ف ﴿الْعَالَمِينَ﴾ إذاً
ماضون، فلا يعني إلا ماضيه في الماضين دون الآتين إلى يوم الدين،
فالشمول لمن يأتي بحاجة إلى دليل وليس فليس .

صحيح أن العالمين في ﴿رَبِّ الْعَالَمِينَ﴾^(١) يعمُّهم كلهم ولكنه بقريته
الرب المحلق ربوبيته على كلهم، وأما الخلق فقضية محدوديته هي محدودية
العالمين إلا بدليل .

وأما الصديقة الطاهرة فهي حسب النص «خير نساء العالمين من الأولين
والآخرين»^(٢) .

وحتى لو دل دليل على اصطفاء مريم على كل نساء العالمين - ولن -

(١) سورة المائدة، الآية: ٢٨ .

(٢) مجمع البيان: أي على نساء عالمي زمانك لأن فاطمة بنت رسول الله ﷺ سيدة نساء
العالمين وهو قول أبي جعفر عليه السلام، وفي نور الثقلين عن أمالي الصدوق بإسناده إلى
النبي عليه السلام أنه قال: أيما امرأة صلَّت في اليوم واللييلة خمس صلوات وصامت شهر رمضان
وحجَّت بيت الله الحرام وزكَّت مالها وأطاعت زوجها ووالت عليها دخلت الجنة بشفاة ابنتي
فاطمة عليها السلام وإنها لسيدة نساء العالمين، فقيل: يا رسول الله هي سيدة عالمي زمانها؟
فقال عليه السلام: ذلك مريم ابنة عمران وأما ابنتي فاطمة فهي سيدة نساء العالمين من الأولين
والآخرين وإنها لتقوم في محرابها فيسلم عليها سبعون ألف ملك من الملائكة المقربين
وينادونها بما نادت به الملائكة مريم فيقولون: يا فاطمة إن الله اصطفاك وطهرك واصطفاك
على نساء العالمين .

أقول: وهذا النص متواتر من طريق الفريقين تواتراً معنوياً أنها أفضل من نساء العالمين من
الأولين والآخرين دونما استثناء وأنها سيدة نساء أهل الجنة، راجع ملحقات إحقاق الحق
(١٠: ٦٩ - ٩٦) وسيدة نساء هذه الأمة (١٠٣: ١١٥) تجد مئات الأحاديث من طرق إخواننا
حيث تعني أفضليتها المطلقة على نساء العالمين في الدنيا والآخرة .

فآية التطهير ترفع دور فاطمة في العصمة إلى القمة المحمدية الفائقة على كل العالمين ومكثت بالبيت تعبد ربها متحررة للخدمة، مخلصه في القيام بالسدانة حتى صارت مضرب الأمثال، لأن ربها ﴿وَأَنْبَتَهَا نَبَاتًا حَسَنًا وَكَفَّلَهَا زَكَرِيَّا...﴾.

تقبلها ربها محررة للبيت ولا يحق لخادمة البيت، والمنذور لتلك الخدمة، المقبولة عند ربها، لا يحق لها خدمة أخرى، لزوج وسواه، فلا تفكر - إذاً - في زواج وسواه ما استلزم الخروج عن البيت، أو خدمته داخل البيت، ولا تعرضها فكرة الخروج لأية حاجة إذ كانت مكفولة الرب في كل حاجياتها محررة بالبيت.

إذاً ففكرة الزواج أو اختيار خطيب لها نائية عن حُلدها، بعيدة عن تحررها، لأنها تُنافي ونذر أمها وتقبل ربها بقبول حسن.

﴿ذَلِكَ مِنْ أَنْبَاءِ الْغَيْبِ نُوحِيهِ إِلَيْكَ وَمَا كُنْتَ لَدَيْهِمْ إِذْ يَقُولُ أَقْلَمَهُمْ أَيُّهُمْ يَكْفُلُ مَرْيَمَ وَمَا كُنْتَ لَدَيْهِمْ إِذْ يَخْتَصِمُونَ﴾ (٤٤):

﴿ذَلِكَ﴾ الذي أنبأناك من القصص ﴿مِنْ أَنْبَاءِ الْغَيْبِ نُوحِيهِ إِلَيْكَ﴾ ومنها الاقتراع بشأن من يكفل مريم ﴿وَمَا كُنْتَ لَدَيْهِمْ إِذْ يَقُولُ أَقْلَمَهُمْ أَيُّهُمْ يَكْفُلُ مَرْيَمَ﴾ وذلك بوحي من الله إلى زكريا بشأن هذه الكفالة المختصم فيها بين القديسين ﴿وَمَا كُنْتَ لَدَيْهِمْ إِذْ يَخْتَصِمُونَ﴾.

فقد كان هناك اختصام بشأن تلك الكفالة الكافلة لصالح مريم سلام الله عليها، فلأن القرعة لكل أمر مشكل، أمروا بذلك الاقتراع حسماً للموقف بما يشاء الله فيه، وعله دون وحي خاص بكفالة زكريا رعاية لذلك الجمع القديس.

لقد كانت كفالتها فريضة بارزة لموقفها الخاص في تحررها، فمن

يكفلها إذاً بين هؤلاء المختصمين بشأنها وهم كلهم صالحون؟ لا سبيل صالحة لتلك ولأن فاطمة سلام الله عليها لم تذكر بأي سوء حتى في السنة أعدائها فلا موجب لذكرها اللهم إلا في جماع الطهارة والعصمة العليا مع أبيها وبعلمها وبنيتها كما في آية التطهير.

﴿يَمْرِيءُ أَقْنِي لِرَبِّكَ وَأَسْجُدِي وَأَرْكَعِي مَعَ الرُّكَّعِينَ﴾^(١):

ذلك التخصص في خطابها بمثلث القنوت والسجود والركوع لربها، هو صورة لماعة من اصطفائها على نساء عالمي زمانها وقبلها، حيث لم تخاطب من قبلها كآسية وسواها بذلك الخطاب الحنون، فهو خطاب رسالي مهما لم تكن هي من الرسل، تدليلاً على القمة البالغة فيها مبلغ الرسل، فتخاطب كما يخاطبون ويوحى إليها كما يوحى إليهم اللهم إلا وحي الرسالة.

﴿أَقْنِي لِرَبِّكَ﴾ في مطلق الطاعة والعبادة، ثم في خاصتها التي هي عمود الدين، المذكورة بأسمى سماتها في جموع المصلين ﴿وَأَسْجُدِي وَأَرْكَعِي مَعَ الرُّكَّعِينَ﴾.

فكما السجود والركوع هما معنيان بعناية الصلاة، كذلك الإتيان بهما في جماعة لمكان ﴿مَعَ﴾ الشاملة لكليهما، وليس جمعهما إلا في الصلاة، فقد تأتي هذه الآية في عداد آيات فرض الجماعة في فرض الصلاة، كـ ﴿وَأَرْكَعُوا مَعَ الرُّكَّعِينَ﴾^(١) و﴿وَلَا جُنُبًا إِلَّا عَابِرِي سَبِيلٍ﴾^(٢) وهي سبيل المسجد مكاناً لازماً للصلاة.

فليكن القنوت للرب، المتمثل كأفضله في الصلاة، ليكون في جماعة القانتين، كشعيرة عظيمة جاهرة ليل نهار أمام الناظرين، فإن ﴿مَعَ الرُّكَّعِينَ﴾ تعم مثلث القنوت والسجود والركوع.

(١) سورة البقرة، الآية: ٤٣.

(٢) سورة النساء، الآية: ٤٣.

فلقد نمت مريم وترعرت وشبَّت واشتدَّ ساعدها وعُمِّر قلبها بتقواها
النمام الذي كان في أصحابه بالقرعة بتعليم الله سبحانه إياه «وكان رسول
الله ﷺ إذا أراد سفراً أقرع بين نسائه فأيتهن خرج اسمها خرج بها» .
واقترع ﷺ بين أهل الصفة لتخرج إلى من يبعثهم إلى غزوة ذات السلاسل
واقترع ﷺ في غنائم حنين ليخرج سهم عيينة والأقرع، «واقترع علي ﷺ
في الولد الذي كان بين ثلاثة» وكذلك القرعة لتعيين الشاة الموطوءة التي
دخلت بين الغنم وليست بمعلومة^(١) .

وحين يقترع النبيون في المشاكل وهم أصحاب الوحي فأحرى بنا أن
نقترع استئناً بستهم كما أمضاها الله تعالى .

وفي ناصية الاقتراعات الرسالية ما اقترع رسول الله ﷺ ف «كان إذا
أراد سفراً أقرع بين نسائه»^(٢) .

كما «فأقرع ﷺ بينهم والحق الولد الذي أصابته - صارت عليه
القرعة»^(٣) .

«فأقرع بينهم فضمن الذي أصابته القرعة ثلثي الدية»^(٤) .

المصلحة الروحية القمة إلا الاقتراع وهو هنا كان بأقلام الوحي حيث

(١) سفينة البحار ٢ : ٤٢٥ عن الصادق ﷺ وقد رواها كلها عن الأئمة المعصومين ﷺ وقد وردت زهاء ثلاثين حديثاً في مختلف الأبواب في وسائل الشيعة كلها تقول ما معناه «القرعة لكل أمر مشكل» .

(٢) المعجم المفهرس لألفاظ الحديث النبوي ٥ : ٣٦٧، أخرجه بألفاظ عدة باتحاد المعنى عن :
خ هبة ١٥ - جهاد ٦٤ - شهادات ١٥ ، ٣٠ - مغازي ٣٤ ، ٥٥ - تفسير سورة ٣٤ ، ٦ - نكاح
٩٧ - م فضائل الصحابة ٨٨ ، توبة ٥٦ ، نكاح ٣٨ ، جه نكاح ٤٧ ، أحكام ٢٠ ، دى جهاد
٣٨ ، نكاح ٢٦ ، حم ٦ ، ١١٤ ، ١٩٧ ، ٢٦٩ .

(٣) المصدر د طلاق ٣٢ ، ن نكاح ٥٠ ، جه أحكام ٢٠ .

(٤) المصدر حم ٤ ، ٣٧٣ ، وفيه : إن قوماً اختلفوا في الأذان فأقرع بينهم سعد .

كانوا يكتبون بها، وما أنسبها بالنسبة لمن يكفل بالوحي، والدة لصاحب الوحي العظيم المسيح ﷺ .

ولم يكن اختصام هؤلاء الكرام عدائياً كاللثام، وإنما سباقاً إلى رحمة الله وهم رفاق في الله وكما اختصم الملاء الأعلى ﴿مَا كَانَ لِي مِنْ عِلْمٍ بِالْمَلَأِ الْأَعْلَىٰ إِذْ يُخَصِّمُونَ﴾^(١) كما وأهل الجنة ﴿يَنْزِعُونَ فِيهَا كَأْسًا لَا لَغْوٌ فِيهَا وَلَا تَأْتِيهِمْ﴾^(٢) .

ولقد جرى في ذلك المجرى قلم زكريا في الماء على خلاف المجرى خرقاً للعادة، تبيناً أنه هو المخصوص هنا بكرامة الكفالة على كرامتهم جميعاً فُقضي الأمر كما أراد الله .

وترى ما هي حدود القرعة حكماً وموضوعياً في شرعة الله؟ .

حين نرى أن الله تعالى يرضى هنا بالافتراع ولم يشكل عليه حكم ولا موضوع، وإنما رعاية لجمع القديسين، فبأحرى لنا الافتراع حين يشكّل لنا أمر في موضوع وقد انقطعت كافة السبل والبراهين لتعيين الموضوع .

لا أقول إننا نستنبط الحكم بالقرعة، حيث الأحكام العامة مبينة في الكتاب والسنة، وإنما ذلك هو الموضوع المبين حكمه، المجهول مصداقه، كواجب الكفالة لمريم ﷺ، ثم المصداق يتبين بالقرعة والله عالم بالحكم والموضوع، ولكن المصلحة تقتضي تعيين الموضوع بالقرعة حسماً للاختصام، وتجنباً عن أي ترجيح بلا مرجح ظاهر .

إذاً فالاختصام - صالحاً وسواه - هو المورد الصالح للافتراع إصلاحاً للموقف وإيلاًفاً للمختصمين، فأى قضية أعدل من القرعة إذا فُوض الأمر إلى الله تعالى لقوله: ﴿فَسَاهَمَ فَكَانَ مِنَ الْمُدْحَضِينَ﴾^(٣) وكما استعلم موسى ﷺ .

(١) سورة ص، الآية: ٦٩ .

(٢) سورة الطور، الآية: ٢٣ .

(٣) سورة الصافات، الآية: ١٤١ .

﴿٤٥﴾ إِذْ قَالَتِ الْمَلَائِكَةُ يَا مَرْيَمُ إِنَّ اللَّهَ يُبَشِّرُكِ بِكَلِمَةٍ مِّنْهُ اسْمُهُ الْمَسِيحُ عِيسَى ابْنُ مَرْيَمَ وَجِيهًا فِي الدُّنْيَا وَالْآخِرَةِ وَمِنَ الْمُقَرَّبِينَ ﴿٤٥﴾ وَيُكَلِّمُ النَّاسَ فِي الْمَهْدِ وَكَهْلًا وَمِنَ الصَّالِحِينَ ﴿٤٦﴾ قَالَتْ رَبِّ أَنَّى يَكُونُ لِي وَلَدٌ وَلَمْ يَمَسِّنِي بَشَرٌ قَالَ كَذَلِكَ اللَّهُ يَخْلُقُ مَا يَشَاءُ إِذَا قَضَىٰ أَمْرًا فَإِنَّمَا يَقُولُ لَهُ كُن فَيَكُونُ ﴿٤٧﴾ وَيُعَلِّمُهُ الْكِتَابَ وَالْحِكْمَةَ وَالتَّوْرَةَ وَالْإِنْجِيلَ ﴿٤٨﴾ وَرَسُولًا إِلَىٰ بَنِي إِسْرَائِيلَ أَنِّي قَدْ جِئْتُكُمْ بِآيَةٍ مِّن رَّبِّكُمْ أَنِّي أَخْلَقْتُ لَكُمْ مِنَ الطِّينِ كَهَيْئَةِ الطَّيْرِ فَأَنْفُخُ فِيهِ فَيَكُونُ طَيْرًا بِإِذْنِ اللَّهِ وَأُبْرِئُ الْأَكْمَهَ وَالْأَبْرَصَ وَأُحْيِي الْمَوْتَىٰ بِإِذْنِ اللَّهِ وَأُنَبِّئُكُمْ بِمَا تَأْكُلُونَ وَمَا تَدَّخِرُونَ فِي بُيُوتِكُمْ إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَةً لِّكُمْ إِن كُنتُمْ مُّؤْمِنِينَ ﴿٤٩﴾ وَمُصَدِّقًا لِّمَا بَيْنَ يَدَيْهِ مِنَ التَّوْرَةِ وَلِأَجَلٍ لَّكُمْ بَعْضَ الَّذِي حُرِّمَ عَلَيْكُمْ وَجِئْتُكُمْ بِآيَةٍ مِّن رَّبِّكُمْ فَاتَّقُوا اللَّهَ وَأَطِيعُوا أَمْرًا ﴿٥٠﴾ إِنَّ اللَّهَ رَبِّي وَرَبُّكُمْ فَاعْبُدُوهُ هَذَا صِرَاطٌ مُّسْتَقِيمٌ ﴿٥١﴾ فَلَمَّا أَحَسَّ عِيسَىٰ مِنْهُمُ الْكُفْرَ قَالَ مَنْ أَنْصَارِي إِلَى اللَّهِ قَالَ الْحَوَارِيُّونَ نَحْنُ أَنْصَارُ اللَّهِ ءَامَنَّا بِاللَّهِ وَأَشْهَدُ بِأَنَّا مُسْلِمُونَ ﴿٥٢﴾ رَبَّنَا ءَامَنَّا بِمَا أَنْزَلْتَ وَاتَّبَعْنَا الرَّسُولَ فَاكْتُبْنَا مَعَ الشَّاهِدِينَ ﴿٥٣﴾ وَمَكْرُوهًا وَمَكْرُوهًا اللَّهُ وَهُوَ خَيْرُ الْمَكْرِيهِينَ ﴿٥٤﴾ إِذْ قَالَ اللَّهُ يَا عِيسَى ابْنُ مَرْيَمَ إِنِّي جَاعِلُكَ فَتْرَةً مِّنَ الْأُمَّةِ وَجَاعِلُ الَّذِينَ اتَّبَعُوكَ فِرْقًا مِّنَ الْفِرَقِ كَذَّبْتُمُنِي أَذْهَبْتُمُونِي فَحَدَّيْتُكُمْ وَأَنْزَلْتُ مِنَ الْسَّمَاءِ مَائِدَةً مِّنَ السَّمَاءِ فِي يَوْمٍ ظَهَرَ لِكُلِّ قَوْمٍ نَبَاتٌ طِينِيٌّ لِيُدْرِكُوا الَّذِينَ كَفَرُوا بِآيَاتِي وَلِيُحْشَرُوا لِيَوْمَ يَأْتِي السَّحَابَ مَطْرَلًا مِّنْ سَحَابٍ مَّحْمُودٍ غَيْرِ الْمَكْرُوهِ ﴿٥٥﴾ فَأَمَّا الَّذِينَ كَفَرُوا فَأَعَذِبُهُمْ عَذَابًا شَدِيدًا فِي الدُّنْيَا وَالْآخِرَةِ وَمَا

لَهُمْ مِّنْ نَّصِيرِينَ ﴿٥٦﴾ وَأَمَّا الَّذِينَ ءَامَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ
فِيؤْتِيهِمْ أُجُورَهُمْ وَاللَّهُ لَا يُحِبُّ الظَّالِمِينَ ﴿٥٧﴾ ذَلِكَ نَتْلُوهُ عَلَيْكَ مِنَ
الْآيَاتِ وَالذِّكْرِ الْحَكِيمِ ﴿٥٨﴾

﴿إِذْ قَالَتِ الْمَلَكَةُ يَمْرَيْمُ إِنَّ اللَّهَ يَبْشُرُكِ بِكَلِمَةٍ مِّنْهُ اسْمُهُ الْمَسِيحُ عِيسَى ابْنُ
مَرْيَمَ وَجِيهًا فِي الدُّنْيَا وَالْآخِرَةِ وَمِنَ الْمُقَرَّبِينَ ﴿٤٥﴾﴾ :

هنا قالات ملائكية لمريم سلام الله عليها بما أوحى الله، تحمل البشارة
بالمسيح ﷺ مولداً ورسالة عالية بآيات لها، قرأ لعينها وقراراً لقلبها،
وتخفيفاً عن وطأتها بحملها ووضعها دون بعل، ﴿يَمْرَيْمُ إِنَّ اللَّهَ يَبْشُرُكِ بِكَلِمَةٍ
مِّنْهُ﴾ .

لقد تهدرت الأيام وتهدلت، ففي يومٍ ما وهي في محرابها اضطربت
نفسها فجأة وداخلتها رهبة لم تعهدها من ذي قبل إذ تظهر أمامها ملاك الرب
يبشرونها بوليدٍ لها وجيه في الدارين، ولا وجه لوجيه وغير وجيه من عذراء
لم يمسسها بشر ولم تك بغياً! .

في سائر القرآن آيات ثلاث تُوصف المسيح ابن مريم ﷺ بـ «كلمة»
ثانيتها: ﴿أَنَّ اللَّهَ يَبْشُرُكِ بِحَيٍّ مُّصَدِّقًا بِكَلِمَةٍ مِّنَ اللَّهِ﴾^(١) وثالثتها: ﴿إِنَّمَا الْمَسِيحُ
عِيسَى ابْنُ مَرْيَمَ رَسُولُ اللَّهِ وَكَلِمَتُهُ أَلْقَاهَا إِلَى مَرْيَمَ وَرُوحٌ مِّنْهُ﴾^(٢) فماذا تعني
كلمة الله بحقه ﷺ ولم يوصف أي نبي ولا خاتم النبيين بـ «كلمة»؟ .

الكلمة لغوياً هي ما تدلُّ على معنى، شاملة للألفاظ الموضوعية على
معانيها، والموضوعات الدالة على واضعيها، والأفعال الدالة على فاعليها

(١) سورة آل عمران، الآية: ٣٩ .

(٢) سورة النساء، الآية: ١٧١ .

وكيانهم فيها، أماذا من دلالات في دلالات وضعية أم ذاتية أم قصدية أماهيه .

لذلك سُميت ذوات محمد والمحمديين صلوات الله عليهم أجمعين أسماء هي هي الكلمات ﴿وَعَلَّمَ آدَمَ الْأَسْمَاءَ كُلَّهَا ثُمَّ عَرَضَهُمْ عَلَى الْمَلَائِكَةِ﴾ (١) كما تقدمت في البقرة .

ذلك - إلا أن اختصاص المسيح ﷺ بوصف الكلمة يزيد على تلك الدلالة الأسمائية بما يخصه بالكلمة .

فهو نتيجة كلمة ﴿كُنْ﴾ و﴿أَسْمُهُ الْمَسِيحُ﴾ وإن كان كل مولود يكون عند قوله تعالى: ﴿كُنْ﴾ فإن كل مولود سواه إنما يكون بـ ﴿كُنْ﴾ على طريق العلق من الرجال، ووسيط اللقاح المتعود من الرجال، وليس كذلك المسيح ﷺ فليختص بخاصة ﴿كَلِمَةٍ﴾ لخاصة ﴿كُنْ﴾ الخارقة في بعد ثان بحقه .

فهو الكلمة المُلقاة إلى مريم: ﴿وَكَلِمَتُهُ أَلْقَاهَا إِلَى مَرْيَمَ وَرُوحٌ مِنْهُ﴾ فالروح هو روحه وعلّ الكلمة - إذاً - هو جسمه: النطفة الرجولية الملقاة إليها دون وسيط رجل، ألقيت من المجرى التناسلي بدفعٍ عبّر عنه هنا بالإلقاء وفي غيرها بالنفخ، وهما مشتركان في معنى الدفع .

وقد تعني كلمة المسيح - فيما عنت - كرور ذكره في مُنزلات كتب السماء المتقدمة لميلاده ورسالته، فلما خلقه الله قال: هذه كلمتي المتقدمة، فقد كانت البشارة - التي هي كلمة - ابتداء معرفته بواقعه، والمطرقة بين يدي مورده .

وكذلك كلمته التشريعية - إضافة إلى التكوينية - الدالة عليه، الهادية إليه .

(١) سورة البقرة، الآية: ٣١ .